التحولات النفسية في روايات محمد الغربي عمران

Psychological transformations in the novels of Mohammad Al-Gharbi Imran

رويدة فيصل محسن محمد
أ.د. فيصل غازي محمد النعيمي
جامعة الموصل- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية

Ruwaida Faisal Mohsen Mohammad
Dr. Faisal Ghazi Mohammed Al Nuaimi
University of Mosul - College of Education for Human Sciences - Department of Arabic Language

rudyr5263@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢١/٦/٢١ تاريخ القبول ٢٠٢١/٧/١٣

الكلمات المفتاحية: التحويلات النفسية- روايات- محمد الغربي- الشخصيات- الأنا

Keywords: Psychological transformations - novels - Mohammad Al-Gharbi - personalities - al'ana

الملخص

سنُعالج في هذا البحث التحولات النفسية في روايات محمد الغربي عمران من خلال محورين، المحور الأول (الأنا/الآخر) الذي يبيّن التغيّرات التي تطرأ على الشخصيات تبعاً لاصطدامها بالآخر، الآخر الذي له الدور الأكبر في تشكيل أو بناء العالم الجوفي للشخصيات، تبعاً لمن يتعاطى معهم سواء كانوا ذا تأثيرٍ سلبي أم إيجابي، فإذا كان سلبياً نرى عالم الشخصية الداخلي مشوّهاً، وإذا كان إيجابي نراه سليماً دون خلل، وفي المحور الثاني (الانحراف السلبي للشخصية) نلاحظ التغيّرات النفسية في شقّها السلبي على الشخصيات التي تملك إلى أن تتغيّر نحو الأسوأ بسبب معاناتها التي لا تنتهي مع محيطها.

Abstract

In this research work will be done to treat the pshycological changes in Muhammad al-Gharbi Amran 's novels by tow axis, the first axis (my self / the other) that show the change of the character when dealing with the other, the other that have the great part in building or forming the inner word of the character, depending on how they dealing with them if they have negative influence or positive influence, so if it was negative influence the inner world of the character will be disfigured, but if it was positive it will be in order without damage.

In the second axis (the negative deviation of the character): notice the pshycological change of the character in the negative way, that have nothing to do but changing to the worst copy of itself because its sufferings that never end with its society.

المقدمة

تتعرض الشخصيات الروائية لتغيّرات كثيرة دون أن تملك القدرة على مجابهتها أو منعها، وهي في أغلب الحالات تغيّرات ذات أسباب اجتماعية تُحدِث أثراً جسيماً –و أحياناً خافتاً– في نسيج الشخصية، فتتبدّل أحوالها النفسية تبعاً لذلك، فتكون ما بين تحوّل سلبي أو إيجابي، لكن في روايات الغربي عمران كان التحول سلبياً، مُباغتاً، ومؤذياً، لذا عولجت شخصياتها ضمن ما يقترحه النفساني (محمد طه) الذي شرح نظرية العالم الباطني للإنسان و كيفيّة بناءه بالاعتماد على ما تصطدم به أو تتعاطى معه الشخصية بلقائها مع الشخصيات الأخرى و الأثر الذي يتركه كل منهم سواء ساعد في بناء العالم الباطني أو حتّى هدمه، إذ يتراوح شكل العالم الداخلي و تكوينه باختلاف ما تتلقّاه الشخصية من الآخر، الآخر الذي قد يبني أو يرمّم حطام هذا العالم أو يهدمه برمّته، ليُحيلنا هذا المحور إلى كيفية تغير شخصيات الغربي نحو الأسوأ في أغلبها، و السبب الرئيس لحدوث ذلك هو المجتمع الديستوبي الذي له الدور الأكبر في تحويل أفراده إلى معتوهين أو يُشارفون على الجنون، وقتلة يلهثون وراء تحقيق القصاص، ولا مُبالون ولا يكترثون لحياتهم، فشخصيات الغربي عمران تبدو صورة كُبرى لتهميش الذات، وقمعها وقهرها من قِبل مُحيطها، فالذات ليست كائناً معزولاً أو نهائي التكوين، بل تظلّ في تغيير أبدي على الصعيدين، الاجتماعي والنفسي، ما دام وجودها يكون ضمن مجتمعٍ ما.

التحولات النفسية في روايات محمد الغربي عمران

مدخل:

حين نتحدث عن التحولات الاجتماعية والنفسية فإننا نبحث عن شخصيات نامية، أو مستديرة -على حدّ تعبير أ.م. فورستر- تلك التي تأخذ الكتاب لنفسها وتتمدد فيه دون أن يعوقها شيء، والتي تمثل اتساع الحياة داخل صفحات كتاب أو داخل الخطاب السردي.(١) شخصيات تتأثّر بضراوة وتؤثر -ولو بشكلٍ طفيف- بالعالم من حولها، شخصيات مُنفعلة على الدوام وغير قارّة، و تسيّرها اهواؤها و اضطراباتها، فالهوى هو نمط حياة -نتحدّث عن كائن وعن سلوك شغوفين- لذا يكون تقديم الموقف الانفعالي باعتباره شكلاً فريداً لمواجهة الصلات مع العالم.(٢) بحيث تكون ردّات فعلها إزاء العالم غير سويّة، لا سيّما لو كان العالم المُحيط بها غير رحيم و يظلّ يوجّه الضربات لها الواحدة تلو الأخرى، سواء من المجتمع ذاته، أو السلطة، أو موقعها أثناء اندلاع الحروب من حولها... إلخ.

كما أنّ الوجود الإنساني ليس راقداً في العالم رقود حصاةٍ على الشاطئ، ولا هو سابحٌ فيه سبحَ سمكة في البحر، بل هو مُعطى في سياق العالم... مخلوط بالعالم، وليس كتلة هائمة، الوجود الإنساني إذن ممزوج بعالم ((مضروب)) به ! بحيث إن هناك عنصراً من العالم داخلاً في صميم وجودنا: آفاق بلادنا... مساكننا... مناظرنا الطبيعية - هي نحن. و العالم الإنساني هو تلك البنية من العلاقات الدالة التي يوجد فيها الإنسان، و التي يشارك في تشكيلها دون أن يفطن إلى ذلك عادةً.(٣)

إنّ الإنسان كائن من صنف العالم ذاته، وقد يكون من الممكن أن كلاً من مبدأ العالم و مبدأ الواقع الإنساني لا يمكن الفصل بينهما، والأفعال النفسية التي نصادفها ليست قط أولية، بل هي، في هيكلها الأساسي، ردّات فعل الإنسان أمام العالم، ولا يضع الإنسان موضوع البحث أو العالم بين هلالين، بل يعتبر الإنسان في العالم، كما يبدو من خلال تعدد المواقف: في المقهى وفي العائلة وفي الحرب.(٤) فالحالة الاجتماعية هي الحالة التي نقدم بها

---

(١) أركان القصة، ت: كمال عياد جاد، مراجعة: حسن محمود: ٩٥.

(٢) الأهواء، جيروم أنطوان روني، ت: سليم حداد: ٥.

(٣) مدخل إلى العلاج النفسي الوجودي، رولو ماي و إرفين يالوم، ت: عادل مصطفى: ٢٨ - ٢٩ - ٦٣.

(٤) نظرية الانفعال (دراسة في الانفعال الفينومينولوجي)، جان بول سارتر، ت: هاشم الحُسيني: ٩- ١٣ - ١٨.

أنفسنا للآخرين.[١] وديناميتها قائمة على علاقة الإنسان والعالم باعتباره موضوعاً للإدراك وللمعرفة والامتلاك.[٢] ومجموعة تصرفاته الآلية والمُكررة التي تحدث تُعدّ كردة فعل تجاه الحوافز الخارجية [٣].

الوعي الانفعالي هو في البدء وعي للعالم، فالإنسان الخائف، إنما هو خائف من شيء، حتى لو كان الأمر يتعلق بذلك القلق غير المحدود الذي نشعر به في الظلام أو في ممر متجهم أو في صحراء، إلخ، فنحن إنما نخاف من بعض أشكال الليل، من بعض أشكال العالم، فيصبح الشخص المنفعل والشيء سبب الانفعال قد اجتمعا في خليصٍ لا ينفصم، كما أنّ الانفعال نوع من خشية العالم، لاسيّما وأنّ أصل الانفعال انحدار عفوي يعيشه الوعي تجاه العالم، فما يعجز الوعي عن تحمله بشكلٍ ما، يعمد لإدراكه بصورةٍ أخرى، ودلالة الانفعال تأتي من العالم وليست من ذواتنا، وما يتلقّاه الفرد من العالم أحياناً تمسّ علاقته مع محيطه، فينتج عن ذلك اضطرابات نفسية كعدم الاستقرار والنرفزة والعدوانية والانطواء على النفس [٤]، ومهما حاول الإنسان عزل نفسه فهو لا يملك في النهاية سوى الاصطدام بالعالم من حوله والتغلغل فيه.

كان قلق الإنسان دائماً خاضعاً لإيقاع: من العالم للأنا ومن الأنا للعالم، لكن الموضوع الكبير للأدب لم يعد الآن مغامرة الإنسان المُنطلِق نحو غزو العالم الخارجي، بل مغامرته لاستكشاف الهوات والكهوف لروحه الخاصة.[٥] فـ"الإنسان شمول و ليس مجموعة، وتبعاً لذلك فإنه يعبر عن نفسه بكلّه في أتفه سلوكيّاته و أكثرها سطحية، و بعبارة أخرى، إنه ليس يوجد هواية أو نزوة أو لازمة أي فعل إنساني ليس كاشفاً"[٦] أي يُشير إلى معنىً ما.

شخصيات الغربي عمران لم تكن بمنأى عن التقلّبات النفسية، و التي كانت في أغلبها متأتية من مؤثرات خارجية (المحيط الاجتماعي الذي يُحيطها)، لذا سنبحث في الآثار المترتبة في ذوات الشخصيات والتي ساهمت في اضطراباتها وتوتراتها، كالعالم الداخلي للشخصية الذي يُبنى معتمداً على الناس المُصاحبين للشخصية، كيف يدخلون في ذواتها و يهدمون ثمّ

---

(١) المشاعر، ستيفن فروش، ت: عبدالله عسكر: ٢٥.

(٢) التحليل السيميائي للخطاب الروائي، عبدالمجيد نوسي: ٢١٤.

(٣) قراءات متعددة للشخصية (علم نفس الطباع و الأنماط، دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ)، روز ماري شاهين، تقديم: محمد أحمد النابلسي: ٤٠.

(٤) تجربة الألم (بين التحطيم و الانبعاث)، دافيد لوبروطون، ت: فريد الزاهي: ١٢٢.

(٥) الكاتب وأشباحه، إرنستو ساباتو، ترجمة وتقديم: سلوى محمود: ٤٤.

(٦) الوجود والعدم (بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية)، جان بول سارتر، ت: عبدالرحمن بدوي: ٨٩٧.

يُعيدون البناء، ونتتبّع الانحرافات السلبية الحرِجة في صفات الشخصيات التي أتت بصورةٍ تدريجية، و مآلهم النهائي.

- **الأنا/الآخر:**

إنّ بداخل الإنسان نسخة من كلّ شخص قابله في حياته، أو كان على علاقةٍ به، نسخة حيّة لها صوت و صورة، و بينه و بينها مشاعر حب أو كره أو غضب أو امتنان... إلخ. فلو تصوّرنا شخصاً قابل في حياته -لا سيما في سنينه الأولى- أناس عاملوه بقسوة أو بحب مشروط أو بعدم قبول... إلخ، فكيف سيحتفظ بالأشخاص بداخله ؟ كيف سيكون شكل هؤلاء الناس في عالمه الداخلي ؟ وحوش طبعاً ! لأن الصور هي أصل لغة العالم الداخلي، فالشخص الذي يكون عالمه الداخلي مليء بالوحوش سيكون متوتراً، مضطرب الشخصية ! وتقوم الوحوش التي في داخله بتحطيم واختراق الحاجز الهش الذي بين العالم الداخلي والخارجي و تغزوه، و يبدأ برؤيتها وسماعها بشكل هلاوس بصرية وسمعية وحسية.(١)

ففي رواية (الثائر)، نجد الشخصية المحورية الثائر نفسه - والذي سنُلاحق علاقاته بالآخر و تأثير الآخر في عالمه الداخلي- قد التقت/قابلت الكثير من الناس، بعضهم كان ذا تأثير ضئيل و سرعان ما تمّ محو أثرهم و نسيانهم، والبعض الآخر أثّر بشكل كبير في تغيير التكوين النفسي/الذاتي لشخصية الثائر.

إنّ أول شخصية في عالم الثائر الداخلي هي والدته، و قد كانت حانية جداً، فيروي الثائر: "**أمنّي نفسي بأحضان أمّي، رائحتها، خبزها، صوتها حين تحتضنني يردد: "يا قمر قمَّيرة" ... فتواصل: "يا قمر صنعاء و يا أحلى قمر، يا ضياء القلب و يا نور البصر"، تغني و عيناها تبتسمان لعيني**"(٢)، لذا بقيت صورتها و ذكراها رؤوفة و تأثيرها لم يكن مؤذياً بل العكس، كان إيجابياً جداً، و قد ساهم في تكوين الكثير من صفاته الجيدة الرحيمة.

لكن عالم الثائر الداخلي سرعان ما ينقلب/يضطرب أثناء رحلته من أجل العثور على والديه، إذ يلتقي بأناس مختلفين، فهناك من يساعده و هناك من يؤذيه، و باختلاف ما يقدمه له الآخرون تتكوّن صورهم في داخله، و بالتالي يُعاد تشكيله الذاتي و يتغير تبعاً لذلك، فالنفس "ليست أنا خالصة أي مجرد ذات؛ بل هي ثرية إلى حدٍ مُذهل. إنها أشبه بالقائد: تلاحظ و تتخذ أفعالاً في الوقت نفسه، إنها تنفعل و تعاني و تتذكر الماضي و تخطط للمستقبل و تبرمجه، و تتوقع و تقدّر. إنها تنطوي، في تتابع سريع أو في الوقت نفسه، على

(١) الخروج عن النص، محمد طه: ٥٨ - ٥٩ - ٦٠.

(٢) الثائر: ٩٣ - ٩٤.

رغبات و خطط و آمال و قرارات بأفعال و وعي واضح بأنها ذاتٌ فاعلة، مركز نشاط. و هي مدينة كثيراً في هذه الذاتية لتفاعلها مع الأشخاص الآخرين، الذوات الأخرى و مع العالم"[١].

شخصية إيجابية أخرى يحتفظ بها الثائر في داخله، رغم أنها شخصية عابرة، بل و يعود للبحث عنها لاحقاً بعد أن يغادرها، فيروي الثائر: "**حين خرجنا من ذمار كنت أبكي تلك المرأة، أتذكر ملامحها، كانت تشبه ملامح أمي، وعدت نفسي يوماً أن أعود إليها، طوال الطريق و صوتها يرافقني، طوال ليلتي في قرية الطين (معبر) أحاول تمييز ملامحها عن ملامح أمي**"[٢] فلأنها كانت شفيقة به، و تشبه والدته، احتفظ بصورةٍ ودودة لها.

و(وردة) كذلك، تُعدّ شخصية ذات صورة حَسَنة في ذهن الثائر، في بادئ معرفته بها على الأقل، فهي تساعده، وتخبئه رغم ذنوبه، لكنها حين توشك على التشهير به، و هو الذي يجاهد من أجل إخفاء نفسه والتواري بعيداً، يضطرّ إلى قتلها، فصور الأشخاص التي يحتفظ بها، تتغير بين الحين والآخر رغماً عنه، و تبعاً لما يفعلونه، فعلى الرغم من العاطفة التي يكنّها لوردة – و ربما لم يكنْ أيّة عاطفة ؟ – إلا إنه قتلها و القارئ في الرواية حين يرى مدى القرب الذي جمع بينهما لا يسعه استيعاب كيف يمكنه ارتكاب جنحته هذه، لا سيما و أنه لم يكن ينوي قتل أحد سوى من آذوه ! فمن المظاهر الغريبة للعواطف الوجدانية السالبة كالكره و الاحتقار و عواطفهما المتعلقة بهما كالغضب هي رغبتهما في الظهور بمظاهر أخلاقية، و قد صاغ (الكسندر شاند) قانوناً يتعلق بأحد الأصول المهمة للتناقض الذاتي في السلوك الإنساني، فتبعاً لمبدأ الأخلاق النسبية، رغم امتلاكنا للقضايا الأخلاقية العامة القياسية كالضمير و الأنا الأعلى و الوجدان الأخلاقي، نعمل استثناءات أخلاقية لأولئك الذين نكرههم أو نحسّ بغضبّ تجاههم [٣].

أمّا بقية الشخصيات التي اضطرّ الثائر إلى التعاطي معها، فأغلبها كانت ذوات صورةٍ قاتمة، و سلبية لدرجة خلقت في نفس الثائر شعوراً ناقماً/ساخطاً دفعه إلى ملاحقة هؤلاء كي يتخلص منهم، ظناً منه أن ذلك سيخرجهم من رأسه. الثائر لم يروِ لنا كيف تبدو صور هؤلاء الأشخاص في داخله، لكن يمكننا أن نلمح تأثيرهم السيئ على نفسه و حياته، و من ثمّ يمكننا أن نرسم صورهم من خلال ما يتذكره هو عنهم، فالشخصية لا تتحدّد من خلال موقعها داخل الخطاب الروائي أو من خلال فعلها فحسب، و لكن من خلال العلاقات التي تنسجها مع

(١) النفس و دماغها، كارل بوبر، ت: عادل مصطفى: ١٩٣.

(٢) الثائر: ١٠٥.

(٣) نقلاً عن: انشطار الذهن، بيتر ماكلير، ت: حلمي نجم: ٢١٧.

الشخصيات الأخرى كذلك، و كيفيّة تعاطيها معها، حينما تدخل في عمليات تبادل اجتماعي من خلال التماس مع الآخر.[١]

على رأس هؤلاء: (شاوش) السجن الذي عذّبه، إذ يقول: "**في تلك الليلة عرف الشاوش (المسوري) الذي استعرضهم في حجرة مستطيلة، لا يزال إلى اللحظة يتذكّر تلك العينين و ذلك الفم الذي يجيد قذف الكلمات البذيئة و الشتائم المقذعة، يسير أمامهم، يلطم هذا و يبصق في وجه آخر، يحفّه عساكره، تلقّى عدة صفعات ساخراً منه: وجه كالعجين، و تتآمر...**"[٢] الشخصية الوحشية الثانية هي (المعلم الأعمش)، يصوّرها لنا الثائر في مواضع متفرّقة، فيقول في مواضع عدّة: "**ذلك الأعمش الذي أحكم قبضته عليّ**"[٣] و في نص آخر نقرأ: "**أفكر بزيارته، أن أشكره على صنيعه، أبت نفسي، أدعو الله ألا أصادفه في حياتي**"[٤] و يروي محاولته في تجنّبه: "**تقيدت بخط سير بعيداً عن خط سيره... نجحت لأيام أن أبتعد عن الاحتكاك به**"[٥] و في نص آخر نقرأ: "**تذكرت سيدنا، هي المرة الأولى التي أشعر فيها أني لا أهابه، كنت مستعداً لمواجهته... سرت أهلوس بصوت مسموع: سأواجهه بكل ما أفكّر به، سأقتصّ من تلك الروح التي أمعنت في إهانتي، و ذلك العقل الذي تقصّد إذلالي، لن يجد ما يهددني به، سأكون في غنى عن دروسه و لن يجد ما يستغلني به**"[٦] و في نص آخر نلاحظ كمية المقت التي يحتفظ بها نحوه: "**أوضحتُ له بأنه امتهنني كثيراً و استغلّ حاجتي، و أني كنت أتألم و أكره كل ما له صلة به...**"[٧]

و بتجميع أفكار الثائر هذه و ما يشعر به، يمكننا تصوّر كيف يبدو هذا المعلم دميماً و مؤذياً في عالم الثائر الداخلي، و كيف أثّر على سلوكه نحو الأسوأ، إذ جعله يدخل في حالة من مشاعر البغضاء و الغضب طويلة الأمد، بسبب حالة العبودية التي عاشها معه، مما جعله يعاني حزناً مريراً، فإنّ "ما يمثله الحزن... هو العبودية حيث تقع علاقتنا مع الآخرين بطريقة لا يمكننا دائماً سردها أو شرحها، بطرق غالباً ما تشتت وعينا بأنفسنا الذي نحاول

---

(١) سيميولوجيّة الشخصيات الروائية، فيليب هامون، ت: سعيد بنكراد، تقديم: عبدالفتاح كيليطو: ١٧.

(٢) الثائر: ٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٠.

(٥) المصدر نفسه: ١٢٢.

(٦) المصدر نفسه: ١٨٧.

(٧) المصدر نفسه: ١٩٠.

تقديمه، و بالطرق التي تتحدى فكرتنا عن أنفسنا باعتبارنا مستقلين ذاتياً و ممسكين بزمام الأمور"[١] فالثائر كان يطمئن لوجود المعلم بجانبه، لكن في اللحظة التي قرر الانعتاق منه ينتقم منه المعلم بوشاية كاذبة تودعه السجن، ممّا يغيّر صورته كلياً في عالم الثائر الداخلي ليلاحقه من أجل التخلص منه "فحالما نتأذى أو نتألم، تتولد لدينا رغبة في إيذاء و ايلام غيرنا بنفس الصورة كأننا نحاول أن نعكس ما حصل لنا. و قد ينجز هذا العمل على حساب تروينا و حلمنا و قد يصل إلى مرحلة خطيرة في الأفعال المدمرة و المحطمة للشخص نفسه"[٢]

تتباين صور الشخصيات في عالم الثائر الداخلي، فهناك شخصيات رسمت صورتها السيئة منذ البداية و بذلك لم يحتَج الثائر إلى إعادة رسمها فقد بقيت كما هي، مثل (شاوش السجن) الذي كان دنيئاً معه منذ البداية، و شيخ قريته الذي أضاع عائلته و شرّدها كذلك صورته كما هي، سلبية منذ البداية، فاستقرت بشكلها السيئ، أما الشخصيات الإيجابية مثل (والدته) و (جارته) و (المرأة التي ساعدته أثناء سفره) فإنها قد بقيت كما هي بصورتها النضِرة، مما منحته شيئاً من الاطمئنان النفسي في خضم ما يقاسيه. لكن هناك شخصيات كانت تتعامل مع الثائر بشكل سَمِح ثمّ تتغيّر لاحقاً و تؤذويه، مثل (الدويدار) ذلك الخادم الذي خدعه فجعله لا يثق بأحد فيما بعد، و (المعلم الأعمش) الذي هيمن على حياته، و صديقه الملقّب بـ(العظمي)، فالعظمي كان الأسوأ بينهم: "... **بحلق قمر مرعوباً في وجه الصوت، نظارة تغطي نصف وجهه، كرر الصوت: ألم تعرفني ؟ صعقته المفاجأة، وجه العظمي و قد اكتسى ببشرة ممتلئة... تحرك لسان قمر:**

– الصبري، أقصد العظمي ؟

فجأة لطمه عسكري من الخلف بمؤخرة بندقيته و هو يصرخ بتملق:

– تكلم بأدب، الفند معلوس.

و دون أن يهتم لتأوهه قال العظمي:

– يقولون أنهم وجدوك بين يدي نسوة يدردحن بك في الشوارع يصرخن: قاتل قاتل ؟"[٣] فيمكننا ملاحظة أنّ حتى الاسم قد تغير ! و بات يعامل الثائر بعنف رغم مساعدة الثائر له حينما كان جريحاً.

يتحتّم على الثائر إذن، إعادة رسم صور هؤلاء، من الشكل الجيد إلى الشكل السيئ الوحشي، و يصل به الأمر إلى ملاحقتهم بغية القضاء عليهم، و هو ما ذكرناه آنفاً، فيما يتعلق بصور تلك الوحوش التي في داخله حين تقوم بتحطيم و اختراق الحاجز الهش الذي

(١) المشاعر: ٢٣.

(٢) انشطار الذهن: ٢١٦.

(٣) الثائر: ٤١٠ – ٤١١.

بين العالم الداخلي و الخارجي و تغزوه، و يبدأ برؤيتها و سماعها بشكل هلاوس بصرية و سمعية و حسية، مما يؤدي به إلى اضطراب في شخصيته/تكوينه النفسي، و يصبح عدائياً إلى حد كبير لدرجة أنه لا يسكن حتى يفتك بأحدهم بذريعة الانتقام "إذ ينفصل جزء من العالم الخارجي و يصبح على الأقل موضوعاً جزئياً. و يندمج في الأنا (عن طريق التوحد)- أي يصبح جزءاً مكوناً للعالم الداخلي"[١] ففي النهاية يتضح لنا أن الثائر يُعاد تشكيله النفسي/الذاتي تبعاً لمن يقابلهم في حياته، و هو في أغلبه تحول سلبي، و انحطاط نحو الأسوأ، فيتقولب وفقاً للشخصيات السيئة كي ينتهي به المطاف بأن يصبح مثلهم أو أسوأ منهم.

يرى محمد طه أنّ ما أوصل الشخصية المضطربة إلى حالتها المختلّة هذه هو علاقة أو مجموعة علاقات وخيمة، قامت الشخصية بالاحتفاظ بها و بمشاعرها نحوها في أبشع صورة، لذا ما سيصلح هذا الخراب و هذه الأجزاء المعطوبة هو علاقة أخرى مختلفة و طيبة، ستكون كفيلة لجعل الشخصية تتصالح مع كائناتها الداخلية المُرعبة، و تراهم بحجمهم الطبيعي البسيط، و بالتالي تتغلب عليهم دون إحداث كارثة أو جريمة.[٢] لكن مشكلة الثائر أنه لم يحظَ بعلاقةٍ كهذه ! لذا نراه و قد شارف على الجنون في النهاية، بحالةٍ نفسية متأزمة، دون أن يتصالح مع ذاته.

بيّد أنّ الأمر مختلف مع (زهرة) و (قارون) في رواية (حصن الزيدي)، رغم البداية المأساوية التي حظيا بها، و الأشخاص المرعبين الذين احتفظا بهم في عالمهما الداخلي، فأول شخص قد احتفظت به (زهرة) هو والدتها -كما حدث مع الثائر- وهي صورة تكاد تكون ملائكية وهذا بديهي نظراً لما أحاطتها بها من عناية وحب. و شخصية (شادن) و(مرداس) و في النهاية (قارون).

شادن و مرداس كانا أكثر شخصيتين سبّبتا انقلاباً في ذاتيّة زهرة، فصورتهما الأولية كانت مُرعبة، إذ يُروى عن مشاعر زهرة نحو شادن: "... **أخذت تسترق النظر بخوف إلى وجهها**"[٣] ثمّ سرعان ما تتغير صورة شادن: "**يوماً بعد يوم تلاشى نفور زهرة من شادن و**

(١) الموجز في التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ت: سامي محمود علي و عبدالسلام القفاش: ١١٥.

(٢) الخروج عن النص: ٦٢ – ٦٣.

(٣) حصن الزيدي: ٣٠.

توطّن الأمان في قلبها..."[١] و حتى النهاية يمكننا أن نلمح تأثير شادن على تفكير زهرة و سلوكها، إذ تروي قائلة: "**سنوات بين أحضانها تعلمني التسامح و المحبة و الغفران**"[٢] لذا نستطيع أن نتبيّن كيف تبدو صورة شادن في عالم زهرة الداخلي، إنها صورة مسالمة على الرغم مما ارتكبته من جُنَح لكنها لم تؤذِ زهرة طوال الحكاية.

أمّا (مرداس) شيخ الحصن، فيُصوَّر بجبروته في بادئ معرفة زهرة به نظراً لما ارتكبه من ظلم، فيُروَى: "...**ترمقه في توجس بنظرات مسروقة، ليسألها:**

– **أتخشين مني ؟**

التفتت لوقع سؤاله، تتردد في أن تقول ما تشعر به، هزّت رأسها بالإيجاب..."[٣] لكنّ ضعفه في النهاية يغيّر صورته في عالم زهرة، فتقرّ هي: "**أصبحت ملاذي الذي أعيش بفضله بعد أن كنت في عداد الموتى**"[٤] بل نلاحظ صورته بوضوح في مخيّلتها: "**تلك اللحظات التي كان يسترسل فيها بحكايته وقد تحوّل إلى طفل كبير، يسعد حين يرى عينيها تتابعان حركة فمه**"[٥] و بذلك نرى صورة مرداس تتغير و يُعاد رسمها، إذ لا تظلّ بذات الشكل القديم، و هذا دون شك سيمنحها شيئاً من الطمأنينة، فتغيير صورة الأشخاص السلبية نحو الأفضل يساعد بترميم عالم الشخصية التي تحتفظ بصور وحشية عن الآخرين، الآخرين الذين يضطلعون بدور ضخم في تشكيل نسيج الإنسان، لا سيّما لو ننظر إلى العلاقات بين البشر أكثر مما نفكّر في سماتهم المنفردة ذاتها.[٦]

أمّا (قارون)، فهو الآخر كان محاطاً بعدد من الشخصيات المؤثرة، كيفما كان هذا التأثير، و من ثمّ سيؤدي ذلك إلى تغيير في نفسه تبعاً لتلك الشخصيات، و لن يكون بمعزلٍ عن التعددية الذاتية التي تفرضها تأثيرات الناس من حوله و كيفية تعاطيه معهم فـ"قابلية النفس لأن تحصل على معناها من الآخر، تجعلها تتحرك على محاور متعددة –بتعدد حاجاتها– لتشبع تلك المعاني"[٧] فدراسة الأنا في سياق العلاقات مع الأفراد الآخرين تحوي مجموعة كاملة من المعاني، فالأنا و الآخر، رغم الحاجز بينهما إلا أنها في ظل العلاقات تعبّر عن

---

(١) حصن الزيدي: ٣٥

(٢) المصدر نفسه: ٢١٨

(٣) المصدر نفسه: ٢١٣

(٤) المصدر نفسه: ٢٢١

(٥) المصدر نفسه: ٢٢٧

(٦) نقلاً عن: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، آراء عابد الجرماني: ٨٣.

(٧) التحليل النفسي بين العلم و الفلسفة، أحمد فائق: ١٧.

التأثير المتبادل القوي بينهما، فالأنا لو وُجِدت في غير سياق فأنها ستكون ببساطة غير ذات معنى.(١)

يمكن ملاحظة علاقة قارون الوطيدة بوالدته التي تبدو صورتها عطوفة جداً و بقيت على هذا الحال دون أن يمسّها تغيير، و شخصيتين أخريتين هما: (عرّام) و (شنهاص)، و في النهاية (زهرة).

لو أتينا إلى شخصية (عرّام) سنلاحظ ثبات صفاته و سحنته، إذ بقي كما هو، لدرجة نلمح اتكاء قارون عليه دائماً و شعوره بالضياع بعد موته، و ذلك بسبب سماته المُغيثة لقارون دوماً. فإنّ خسارة أشخاصٍ مهمّين أو أشياء تمثّل أشخاصاً هي المصدر الأساسي للحزن، فهُناك شيئاً ما قد حدث و يحقّ للشخص أن يحزن من أجله، و أن شيئاً ما كان هناك و له قيمته و لم يعد موجوداً الآن و ترك العالم ليصبح العالم بعده غير كامل، فذاتيّتنا تقوم و ترتكز على صلاتنا بالآخرين و الذي يعني أنه عندما نفقدهم فإننا نفقد أنفسنا.(٢) فهكذا كانت تماماً مكانة عرّام في نفس قارون، بسبب حنوّه و عدم تغيّره معه.

لكن شخصية شنهاص قد اختلفت، و صورته في عالم قارون لم تكن ثابتة، فقد كان صديقاً في البداية، و يبدو كأنه أبٌ لقارون، لكن في النهاية نرى اختلاف صورته: "**يهرب قارون أن لا تلتقي عيناه بعينيه، وقف مهدداً و قد رفع ذراعه المبتورة إشارةً إلى غضبه: لن أتركك تنشر الرذيلة في الوادي، و هذا أنت بين يديّ، سأذبحك...**"(٣) فبتغيير شنهاص على أرض الواقع، لا يسع لقارون سوى أن يغيّر هيأته في عالمه الداخلي ليعيد تصويره كوحش، فيكون تأثيره سيئاً دون شك.

فالعالم الداخلي حقيقي، ويؤثر على الأفكار والمشاعر والتصرفات و ردود الأفعال، إنه مكوّن من مجموعة علاقات ومشاعر مخزّنة في صور درامية هائلة التركيب و شديدة التعقيد، لكنه مهما كان مشوّهاً، فبإمكان علاقة واحدة حقيقية فيها قبول و حب غير مشروط، أن تغيّره و تُشفيه، و تعيد تكوينه مجدداً.(٤) و يُشير هيغل إلى أن الفرد يكتشف (الأنا) الخاصة به

(١) البحث عن الذات (دراسة في الشخصية و وعي الذات)، إيغور كون، ت: غسان نصر: ١١.

(٢) المشاعر: ٧٨ – ٧٩.

(٣) حصن الزيدي: ٢٤٦.

(٤) الخروج عن النص: ٦٤.

ليس عن طريق الاستبطان، بل عن طريق الآخرين، في سياق عملية الاحتكاك و النشاط منتقلاً بذلك من الخاص إلى العام.(١)

لذا نرى في النهاية أنّ العلاقة التي جمعت بين زهرة و قارون قد ساعدت على شفاء العالم الداخلي لكل منهما، و أصلحت شيئاً من الضرر الذي خلّفته شخصيات ذات تأثير سلبي، فما عادا يذكران (جبّار) الذي عذّب قارون بالجلد و قتل والدة زهرة، بل نراهما مُنقادان وراء بعضهما البعض سعياً للنسيان و الطمأنينة: "**تجرأت و أمسكت بكفّه و كأنه أليفها منذ سنين، تبعها بصمت و ذهول، يفكر في غده معها و هو الشريد... كان يودّ أن يسألها لكن خطواتها الجادة كانت تشي بيقين وجهتها...**"(٢) و لهذا السبب تحديداً الذي نراه مبرراً دامغاً في تمسّك كل منهما بالآخر.

- الانحراف السلبي للشخصية:

يُشار إلى الأنا، على أنّها مجموعة دائمة التبدل و التجزؤ، نتماهى بها مدركين أن ليس لها أيّ وحدة ثابتة، لأننا مفكّكون، مقسّمون، مضللون باستمرار، ننتقل من وضع إلى آخر، و من محفِّز إلى آخر، نضلّ في حشود مواقفنا و ردود فعلنا و انفعالاتنا و أفكارنا.(٣)

و يُمكن قول الشيء ذاته فيما يتعلق بشخصيات الغربي عمران المفكّكة رُغماً عنها، بل إنه يكاد لا يتناول سوى هذا الصنف من الشخصيات، المضطربة، المنفعلة، السّقيمة، المجنونة... و لو استعرنا التشبيه الذي ابتدعه (ستيفان تسفايج) حينما وصف شخصيات دوستويفسكي، لقلنا عن الإنسان في روايات الغربي عمران أنه: لا يغدو ذا صورةٍ ملموسة إلا في حالة الهيجان الأقصى، في النقطة النهائية من شعوره، إذ يتناول النفس الإنسانية في لحظة اندفاعها و عنفوانها و كأنه يفعل ذلك في الثواني التي يشرف فيها الإنسان على الحافة القصوى لإمكاناته، إنه مشرّح للنفس الحسّاسة و المريضة.(٤) لكن المُعضلة تكمن في أنّ انفعالات شخصيات الغربي عمران جعلت مآلهم في انحدار سلبي دائم.

ففي رواية (الثائر)، يمكن ملاحظة صفات الثائر البريئة حينما كان صبياً و هو أمر بديهي فهو ما يزال نقياً لم يصطدم بخارجه كي ينعكس على داخله بعد، لكن تتوالى عليه المآسي لاحقاً في مختلف سنيّ عمره، مآسي لا تكون حليفةً له، و ثمّة آثار مترتبة على ذلك، آثار سلبية في الغالب، فبسبب رحلته الطويلة الشاقة بغية العثور على عائلته، يُعاني التشرد،

---

(١) نقلاً عن: البحث عن الذات: ٢٣.

(٢) حصن الزيدي: ٢٣٩ – ٢٤٠.

(٣) براديغما جديدة (لفهم عالم اليوم)، آلان تورين، ت: جورج سليمان: ١٧٣ – ١٧٨ – ١٧٩.

(٤) بُناة العالم، ستيفان تسفايج، ت: محمد جديد: ٢٢٣.

الفقر، التيه، و ممّا يزيد فاجعته هو سَجنِه ظُلماً دون ذنب، و مقابلته لأشخاص أساؤوا معاملته، جميعها أسباب أدّت إلى اضطراب شخصيته و هيجانه الدائم، إذ نراه في أفضل حالاته يعاني شتّى أضرب المشاعر المتضاربة/المتناقضة، و يقول دايفيد هيوم في هذا الصدد: عندما أسبر غور شيء ما بشكل غامض، ألا و هو الأنا، فإنني دائماً ما أواجه ذلك الإدراك الواحد للدفء و البرودة، و النور و الظلام و الحب أو الكراهية، الألم أو اللذة. و لم أستطع أبداً اصطياد أنا الذات و كأنها تجانب المدركات و لا أستطيع ملاحظة أي شيء ما عدا إدراكها،(١) و يذهب دانيال تشاندلر إلى أبعد من ذلك حين يقول أنّ الإنسان يستطيع "أن يشغل عدّة مواقع للذات، بعضها يتناقض في ما بينه" !(٢)

فعلى الرغم من تشاؤمية استنتاج هيوم و ما يراه تشاندلر إلا إنه يمثل نفسية الثائر أو يقترب منها إلى حد ما، إذ يصف الغربي عمران شعور الثائر أبان هروبه من أحد السجون: "**أحسّ براحة و سكينة مُقلقة، لم يُقاوم دموعه، وقف متجهاً نحو القبلة، كرّر التكبير و التهليل، قرأ الفاتحة و آية الكرسي باكياً، ركع، سجد دون عدد، يتأمل تلك الجدران، يشعر أنه في أطراف الأرض**"(٣) كما يوصف في نظر إحدى الشخصيات: "**أنت لا تستقر على حال، أيام تبدو فيها منطوياً، كئيباً، بل تقترب من الهلاك، و أخرى كما أنت اليوم سعيد، تتغير بين يوم و آخر...**"(٤) إذ قلّما نلحظه بحالة من السكينة و الاستقرار، و يصوّره لنا الغربي عمران في أكثر حالاته ضعيفاً، منكسراً، بمشاعر متأرجحة، و ذلك لم يأتِ من فراغ، دون سبب، بل راجع إلى معاناته الكثيرة. و في أحد محاولاته للقصاص يمكن رؤية مشاعره الجزوعة: "**... جثم ينتحب، رفع كفيه باحثاً علّه يرى أصابعه: لم أكن أتخيّل أنني سأقتصّ بهذه البساطة، و أنني سأتحول إلى قاتل، أم أنه لم يمت و عليّ ملاحقته من جديد و قتله ! ينتحب مناجياً الله... ابتعد يسير في مجرى السايلة المعتم، يرى أشكالاً لا تشبه شيئاً، رياح تصفر بصقيع يتخلل رأسه، كل شيء دون ملامح، أدركه الإعياء، فقد بوصلة الاتجاهات، سقط أرضاً، تكوّم على نفسه**"(٥) إذ بمقدورنا إدراك غزارة مشاعر الثائر المؤذية، و هروبه المُستميت خشية أن يمسكوا به، أو خوفاً من الموت رغم أن حياته كانت عبارة عن

(١) نقلاً عن: البحث عن الذات: ١٦.
- و يُنظر: النفس ودماغها: ١٦٧.
(٢) أسس السيميائية، ت: طلال وهبة: ٣١٥.
(٣) الثائر: ١٣.
(٤) المصدر نفسه: ٩١.
(٥) المصدر نفسه: ٣٥.

جحيم لا يُطاق و بالكاد تُعدّ حياة ! لكن لأنه يعلم أنه قد أجرم "إذ يعلن الناس أنهم يخشون النظر داخل أنفسهم خوفاً ممّا قد يكتشفونه. الذنب هو مصدر خوف الجميع من يوم القيامة، لأنه يستحضر صوراً مخيفة من الخطيئة، و الجحيم، و غضب الله المُبرر أخلاقياً. يصنف الجانب السلبي لكونك كائناً بشرياً خطيئة/ذنب/حكم/إدانة/عقوبة/موت/جحيم. إن الجانب السلبي لكونك إنساناً هو الحجاب الكثيف الذي يخيم على الحياة البشرية، الذي يعيشه المرء بعد ذلك على خشبة مسرح الباب المسحور المفضي إلى الجحيم. و يخشى الموت على أنه المفتاح الذي يفتح الباب المسحور في أي لحظة"[١] لكن يبدو أن الثائر لا يمكنه احتمال أن يحيا جحيمين.

في قصاصه الآخر، يوصف لنا: "... **لم ينم ليلتها، تارةً ينتحب و أخرى يتمتم بصلوات و أدعية بصوت حزين... يتكوّم على نفسه... لا يعرف كم مضى من الأيام و تلك المشاهد تسيطر على ذاكرته، و مخزونه لتلك الآيات و الصلوات يتناقص، ليشعر بنضوب ذاكرته و فقدانه لتوازنه، لم يعد يعي ما عليه فعله...**"[٢] نلمح تحولات الثائر في انحدار سلبي مستمر بعد كل جريمة يرتكبها، و شخصيّته تتغير لاحقاً لتصبح ما يطلق عليها: بالـ(بارانويا paranoia) و تعني: "الشخصية التي تحتوي على مكوّنات حسّاسة جداً و غير مرتبة و غير قادرة على أن تتكيّف أو تنضبط. و سوف يكون مثل هذا الشخص منعزلاً يفتقد الأصدقاء و المشاغل التي تستطيع أن تخفف من خوفه المستطير من العالم"[٣] فنرى تطيّره و خوفه في نهاية مراحل حياته التي تُفتتح بها الرواية: "**فزع من نومه كمن سمع نقراً. تساءل: هل استدلوا على مخبئي ؟ بحث عمّا يستعين به، تخيلهم يحاصرون السطح، فكّر في طريقة الخلاص، نظر إلى النافذة الوحيدة... اضطرّ إلى فتح الباب بحذر و قد أربك الخوف حواسه...**"[٤] .

يغدو الثائر في نهاية المطاف، دون وجهة، دون عائلة فقد أضاع وقته و لم يبذل مجهوداً كافياً من أجل إيجادهم، بل أصبح قاتلاً/مجرماً يسعى للانتقام، و دون هوية إذ نلاحظ سعيه الدؤوب من أجل طمس ذاته والتخفي بسبب جرائمه. لذا يمكن أن نتبيّن مقدار انحدار صفاته الشخصية نحو الأسوأ على الدوام، ويبدو وكأنه قد اعتاد القتل، إذ يدور شجار بينه و بين (وردة) صديقته، و الفعل الوحيد –المعتاد– الذي يبدر منه هو قتلها: "**لم يستطع إسكاتها، وصل بعد عناء إلى دارهم المظلمة و هو يرتجف، يرتفع صوتها و قد خالطه النحيب، حاول**

(١) الأنا (الواقعية و الذاتية)، د. ديفيد ر. هاوكينز، ت: حسين محمد: ٢٦٤.
(٢) الثائر: ٨٧ – ٨٨.
(٣) انشطار الذهن: ١٩٩.
(٤) الثائر: ١٤.

إصماتها، سحب خيط بيادته، طوّق رقبتها، شدّه بقسوة و هو يبكي، تغرغر ظلام المكان، صمت كل شيء إلا من نحيبه"[١] حتى آخر جريمة يرتكبها، نرى الغربي عمران محاولاً وصف بروده و كيف أنه بات غير آبه بما يفعل، و متبلّد شعورياً: "**دنا قمر، بأصابعه أمسك بطرف خيط حذائه، سحبه، نهض، استدار ليطويه بحرفيّة المجرّب حول رقبة العظمي، حاول مقاومته صارخاً، هوى أرضاً و قد جثم قمر فوقه يشدّه أكثر، ارتفع صخب العسكر، أحكم شدّه بيد وحيدة، ضجّ صوت علوس يستنجد، أعقاب بنادقهم، ركّز على إحكام شدّ خيط الحذاء بكلتا يديه، ظلّ قمر يشد خيطه غير مبالٍ، بما يصنعه العسكر، نجحوا في رفعه، سحبوه خارجاً، يتمنى أنه ساعد روح صديقه في الانتقال إلى الملأ الأعلى...**"[٢]

في رواية (مصحف أحمر)، نرى (تُبعة) في ظل انخراطه بالثورة، و كثرة التهجير، و عدم الاستقرار في مكان، و هروبه من قريته و من السجن، يكتسب سلوكاً غريباً، نزِقاً، مزاجياً، أخرقاً، إذ يتوجب على الفرد التأقلم مع البقاء على قيد الحياة و تعلم مهارات معقدة على مستويات متعددة. فهو على علم بأن خطأ فادحاً واحداً يمكن أن يجلب كارثة على حياته، و كأنه يتوجب على الكائن السير في حقل ألغام الوجود البشري من أجل البقاء على قيد الحياة، سواء رغب في ذلك أم لا.[٣] فكل هذا الحذر و التوجس الذي يضطرّ تُبعة لمعايشته سيخلق فيه فوضى من العسير معالجتها.

يُلاحظ الاعوجاج في شخصيته جلياً، حين تكشفه لنا الشخصية المحورية (سمبرية) في عدّة مواضع من الرواية، منها: "... **كنت أجزم بأنه لن يغادرني.. لكنني لم أجد تُبعة الذي كان.. لقد غادرنا ذات يوم.. ليعود شخصاً آخر**"[٤] و في موضع آخر نقترب من تُبعة حين يتحدث هو في إحدى خطاباته في بداية رحلته الثورية، لنرى مدى قلقه، و ارتباكه: "... **كان مولانا يسير ذهاباً و إياباً.. مردداً صلواته.. يبعث فيَّ الرغبة بالبكاء.. اكتشفتُ أني عاجز عن فهم الحياة.. عن مواجهتها.. و أنها تدفع بي في طرق أجهلها.. تكومت جوار الكيس أفكر في لحظتي.. في الأيام القادمة**"[٥] و بسبب فراره الدائم، يبدو مهزوماً لا يستطيع فعل شيء أمام أعداد تفوقه، يقول: "**لم يترك لي القادمون فرصة للتفكير.. غلفني شعور بالذل..**

(١) الثائر: ٤٠٨ – ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢٢.

(٣) الأنا (الواقعية و الذاتية): ١٠٤.

(٤) مصحف أحمر: ٦٦.

(٥) المصدر نفسه: ٩٥.

حاملاً سلاحي.. أشعر بضآلة ذاتي و أنا أبتعد كالثعب فقد حيلته.. ألهث أتسلق المنحدرات.. مسامعي أصابها الصمم.. لساني مذاقه مر..."[١]

كما أنّ مناصه/خلاصه الوحيد الذي هو الثورة، التي انضمّ إليها، لا تحقق أي شيء مما رسمه و تصوّره في خياله، مما يزيد من تشتّته، و يبدو و كأنّه بقي الوحيد ممن يؤمنون بهذه الثورة، مما يؤدي إلى انزوائه شيئاً فشيئاً، لكنه ليس انطواء فرد غير قادر على الالتزام بالأخلاق الجماعية، بل إنه أمام تفكك هذه الأخلاق الجماعية، لم يبقَ للفرد إلا الاهتمام بنفسه[٢] لأنّ تُبعة كان ذا مبادئ، و ليس العكس، و هذا ما جعله ينطوي و يبتعد، بسبب أفعال رفاقه الثوّار التي كانت مُنافية لمبادئه و تصوراته، فقد آمن أنه سيجد الخلاص في هذه الثورة، أنها ستحرره من فراره الدائم ظناً منه أنها ستجلب العدل للقرية، إذ "يودع الإنسان مشاعره الاجتماعية في الأمة. فهو، كمواطن، مستعد حتى لتقديم حياته من أجل أخيه الإنسان، و كفردٍ خاص، هو محكوم بأنانية تتمحور حول ذاته. لأنه جعل الأمة تجسيداً لمشاعره الاجتماعية، فهو يعبدها هي و رموزها. يضفي إحساسه بالسلطة، بالحكمة، و الشجاعة على زعمائه، و يعبد هؤلاء الزعماء كأصنام"[٣] فتُبعة كان من جهة واثقاً بقوّاد الثورة كي يحلّ العدل بانتصارها، و من جهة ستساعده على الاستقرار و توقف هروبه من شيخ قريته أخيراً.

و الصورة الأخيرة التي يستقر عليها، نلاحظها في الصفحات الأولى من الرواية، يبدو فيها غير مكترث لمن حوله، و يتصرف كالأبله، و يُبان ذلك من خلال الكلام الوارد في خطاب (سمبرية) إلى ابنها، و التي تعبر فيه عن نظراتها الحرجة منه و حزنها لما آل إليه: "... **أيها الناس أشهدكم.. هذا هو ابني الوحيد.. و هذه هي زوجتي.. إني أعتذر لهم عن تقصيري.. أتصدقون ؟ لن تصدقوا إذا قلت لكم: أني أقابل ابني لأول مرة.. أنا لا أعرفه.. و هو لم يرني منذ مولده.. لكن أرجوكم أنظروا.. أليست ملامحه هي ملامحي ؟ أنا مناضل كبير.. لم أتخلّ خوفاً أو جُباناً.. بل كنت أحاول أن أرسم حلمي.. حلم اليمن الواحد.. الموحد بالحرية و العدالة... الآن ما أزال مطارداً.. مهدداً بالقتل في أي لحظة ! هذه إصابات جسدي.**

أخذ يخلع ملابسه و هو يتحدث.. يشير إلى مواطن الإصابات.. و قفت محولاً مساعدته.. قال أحدهم:

- عجوز مخمور.

---

(١) مصحف أحمر: ١٩٢.

(٢) تأويل الذات، ميشيل فوكو، ت: الزواوي بغورَه: ٢٢.

(٣) كينونة الإنسان، إيريش فروم، ت: محمد حبيب: ٣٨.

شعرتُ بطعنة في قلبي.. قلتَ أنت لتُبعة بعطف:

- عفواً.. نحن بين الناس ؟

- ألم تخبرك أمك ؟

التفتّ إلي.. إلى عيون من حولنا.. دوائر الخجل و الحيرة تحاصرك:

- أماه ؟ بقدر سعادتي لحضوره حزني على ما هو فيه

رددتُ عليك مرتبكة:

- **إنه والدك !**"[١] من خلال هذه المشهد يمكن أن نتبيّن أنّ تُبعة لم يكن أبلهاً بقدر ما كان محطّماً و مقهوراً، و كان ذلك لسذاجته و إيمانه الشديد بالجهة الخاطئة من الثورة. لكن تُبعة لم يكن يملك خياراً في تماديه في تخريب ذاته إذ "هل هناك طريقة يكون فيها البشر كاملين فقط عندما تسمح فيها الجوانب التخريبية أو العدمية أو ما يمكن أن يطلق عليها ببساطة الجوانب السلبية لشخصياتنا لنفسها بالتعبير عنها ؟"[٢] فكان شططه في جنونه يبدو و كأنه يخرجه من ذاته لوهلة كي ينسى انكساره و إخفاقه.

لكن في رواية (حصن الزيدي) يمكن ملاحظة اختلاف الانحراف السلبي في شخصية (قارون)، إذ لم ينتهِ به الأمر لأن يغدو قاتلاً كالثائر، و لا مجنوناً فوضوياً كتُبعة، بل كان مختلفاً عنهما، باختلاف نسيجه الذاتي الهادئ الطفولي، و طبعه البارد أو الساذج، إذ "يختلف انفعال كل شخص عن انفعال شخص آخر بقدر اختلاف ماهية أحدهما عن ماهية الآخر"[٣]

إنّ قارون يرتطم بالعالم بشكل مفاجئ، فهو كما "الأنا الذي خرج إلى العالم ليعيد تشكيله من جديد، و العالم بدوره صار هو الذات في فاعليتها.[٤] فيصبح سجيناً دون ذنب، ثمّ يفرّ ليصبح ثورياً -مثل تُبعة، و لا يملك خياراً كذلك- ضدّ شيخ الحصن، ثم بعد فشل الثورة نراه يمتلك خياراً للمرة الأولى، ما بين استئناف انضمامه للثورة بعد لمّ شتاتها، و ما بين السفر و الرحيل عن الوادي، فنراه يختار الرحيل بعيداً. فمراحل حياته، بقسوتها، كانت تغيّر فيه صفاته الشخصية: "**كل ذلك جعله كائناً مغايراً لما كانه**"[٥] و يوصف لنا في موضع آخر: "**الحبس**

(١) مصحف أحمر: ١٨ - ١٩.

(٢) المشاعر: ١٨.

(٣) علم الأخلاق، سبينوزا، ت: جلال الدين سعيد: ٢٢٨.

(٤)أنطولوجيا الذات (بيان من أجل ولادة الذات في الوطن العربي)، أحمد برقاوي: ٣٠.

(٥) حصن الزيدي: ٦٦.

علمه كبت المشاعر، و كتم الصخب بداخله، فقد سمح لدفقة من دموع الشوق بأن تنفّس عن قلبه. بعدها شعر بتماسكه، و كأنه كائن آخر يهبط"[١]

إذ ينتقل قارون من البراءة، إلى السجن حيث يكبر بسرعة على قصص المساجين، ثمّ الثورة التي تسلّحه ببعض القوة و المعرفة لكن لا يلبث فيها طويلاً، فموت والدته، ثمّ الرحيل بعيداً بعد رؤية أن لا طائل خلف الثورة... جميعها أحداث أبادت –و لم تخلق– صفاتاً كثيرة في قارون، أهمّها أنه فقد معنى حياته، أو ما يُدعى بالـ(فراغ الوجودي)، و "هو مصطلح أدخله فيكتور فرانكل و يعني فقدان الفرد للشعور بأن حياته ذات معنى"[٢] لأنه وحيد، لا يملك أحداً أو شيئاً في حياته، فأحد أصدقائه مات، و الآخر انقلب ضده، ليغدو في النهاية غير مكترث بشكلٍ كلّي لما يحدث لمصيره، فانحداره السلبي هنا تحت مسمّى (اللامبالاة)، التي تحدّث عنها إريش فروم حين قال أن مفهوم الشر قد تغيّر جذرياً و باتت اللامبالاة تجلّ جديد له –أي للشر– و هي تُعدّ بربرية جداً و اغتراب تام وجهاً لوجه مع الحياة، كتشيؤ الإنسان و فقدانه السيطرة على نفسه و تحوله إلى محكوم من قبل الأشياء و الظروف التي يخلقها.[٣] فيوصف لنا بعد أن فَقَد كل شيء: "**يفكر أي الاتجاهات يختار، رآها و قد تساوت أمامه، يفكر في ترك قدميه تقودانه كيفما شاءتا...**"[٤] و حتى النهاية، رغم اقترانه بالشخصية (زهرة) التي ساعدته كثيراً لينجو من وحدته و فراغه، نلمح أحياناً لا مُبالاته إزاء مصيره رغم أنه قد اقترن بمصيرها، فرغم منعه عن إقامة المسامرات الليلية، نراه لا يأبه للتحذيرات ممّا يؤدي إلى اعتقاله مع زهرة: "**في صباح اليوم التالي فتحت زهرة جفونها على رجال يقفون بأسلحتهم أمام الكوخ، لا تدري ما عليها فعله، حاولت إيقاظ قارون، ليخرجوه مسحوباً إلى الخارج، يتصارخون: ألم تُنذروا بعدم العودة لارتكاب الفواحش**"[٥] فحين تنحدر الشخصية إلى هذا القاع السلبي لا يُمكن إنقاذها أو إرجاعها إلى ما كانت عليه دفعةً واحدة و من الوهلة/المحاولة الأولى.

---

(١) حصن الزيدي: ٦٨.

(٢) نقلاً عن: مدخل إلى العلاج النفسي الوجودي: ٤٢.

(٣) كينونة الإنسان، ت: محمد حبيب: ٣٠ – ٣١.

(٤) حصن الزيدي: ٢٣٥.

(٥) المصدر نفسه: ٢٥٢.

الخاتمة

إن شخصيات روايات محمد الغربي عمران لم تكن بمنأى عن التقلبات النفسية والتي كانت في أغلبها متأتية من مؤثرات خارجية مثل المحيط الاجتماعي لهذا جاءت هذه الدراسة لتبحث في الآثار المترتبة في ذوات الشخصيات والتي ساهمت في اضطراباتها وتوتراتها وكشفت عن العالم الداخلي للشخصية الذي يبنى معتمدا على الناس المصاحبين للشخصية من حيث علاقات الهدم والبناء والثبات والتوتر والسلب والايجاب مع تتبع الانحرافات السلبية الحرجة في صفات الشخصيات وبيان الوجه السوداوي لها من حيث المآل النهائي والوحدة والعزلة والاقصاء والاغتراب وتأثير كل هذه المشاعر الحالكة على تكوين الشخصية النفسي.

ثبت المصادر

- اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، آراء عابد الجرماني، منشورات ضفاف – منشورات الاختلاف، لبنان – الجزائر، ط١، ٢٠١٢.
- أركان القصة، أ. م. فورستر، ت: عمال عياد جاد و حسن محمود، دار الكرنك للنشر و الطبع و التوزيع، القاهرة، د. ط، ١٩٦٠ .
- أسس السيميائية، دانيال تشاندلر، ت: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- الأنا الواقعية و الذاتية، د. ديفيد ر. هاوكينز، ت: حسين محمد، دار الخيال، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٧.
- انشطار الذهن، بيتر ماكلير، ت: حلمي نجم، دار الرشيد للنشر، بغداد، د. ط، ١٩٨٢.
- أنطولوجيا الذات (بيان من أجل ولادة الذات في الوطن العربي)، أحمد برقاوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط١، ٢٠١٤.
- الأهواء، جيروم أنطوان روني، ت: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- البحث عن الذات (دراسة في الشخصية و وعي الذات)، إيغور كون، ت: غسان نصر، منشورات دار معد للنشر و التوزيع، سورية – دمشق، د. ط، ١٩٩٢.
- براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، آلان تورين، ت: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١١.
- بُناة العالم، ستيفان تسفايج، ت: محمد جديد، دار المدى، العراق، ط٣، ٢٠١٥ .
- تأويل الذات (دروس ألقيت في "الكوليج دوفرانس" لسنة ١٩٨١ – ١٩٨٢)، ميشيل فوكو، ترجمة و تقديم و تعليق: الزواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط١، ٢٠١١.
- تجربة الألم (بين التحطيم و الانبعاث)، دافيد لوبروطون، ت: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – بيروت، ط١، ٢٠١٧ .
- التحليل السيميائي للخطاب الروائي (البنيات الخطابية – التركيب – الدلالة)، عبدالمجيد نوسي، شركة النشر و التوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢.
- التحليل النفسي بين العلم و الفلسفة، أحمد فائق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ط، د. ت.
- الثائر، محمد الغربي عمران، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٤.
- حصن الزيدي، الغربي عمران، دار نوفل، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٩ .

- الخروج عن النص، محمد طه، دار تويا للنشر و التوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٦.
- سيميولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، ت: سعيد بنكراد، تقديم: عبدالفتاح كيليطو، دار الحوار للنشر و التوزيع، اللاذقية – سورية، ط١، ٢٠١٣.
- علم الأخلاق، سبينوزا، ت: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، د. ط، د. ت.
- قراءات متعددة للشخصية (علم نفس الطباع و الأنماط، دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ)، روز ماري شاهين، تقديم: محمد أحمد النابلسي، دار و مكتبة الهلال للطباعة و النشر، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٥.
- الكاتب و أشباحه، إرنستو ساباتو، ترجمة و تقديم: سلوى محمود، مراجعة: عبير عبدالحافظ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥ .
- كينونة الإنسان، إيريش فروم، ت: محمد حبيب، دار الحوار للنشر و التوزيع، سورية، ط١، ٢٠١٣.
- مدخل إلى العلاج النفسي الوجودي، رولو ماي و إرفين يالوم، ت: عادل مصطفى، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط٤، ٢٠١٥.
- مدخل إلى نظريات الرواية، بيير شارتيه، ت: عبدالكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر و التوزيع، الدار البيضاء – المغرب، ط١، ٢٠٠١.
- المشاعر، ستيفن فروش، ت: عبدالله عسكر، المركز القومي للترجمة، الجزيرة – القاهرة، ط١، ٢٠١٥ .
- مصحف أحمر، الغربي عمران، روافد للنشر و التوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٠.
- الموجز في التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ت: سامي محمود علي وعبدالسلام القفاش، تقديم: محمد عثمان نجاتي، مراجعة: مصطفى زيوار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ٢٠٠٠.
- نظرية الانفعال (دراسة في الانفعال الفينومينولوجي)، جان بول سارتر، ت: هاشم الحُسيني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د. ط، د. ت.
- النفس ودماغها، كارل بوبر، ت: عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٢.
- الوجود والعدم (بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية)، جان بول سارتر، ت: عبدالرحمن بدوي، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٦٦ .